المدارس المصريّة

اتينا في مقالةٍ موضوعها "العلمُ وخير البلاد" نُشِرَت في الجزء الماضي ان دوَل الارض العظيمة كانكلترا وفرنسا والمانيا واميركا تهتمُّ بامر التعليم اشدَّ الاهتمام حاسبةً انهُ ركن من اركان عزّها وتقدُّمها . واتينا في تلك المقالة وفي مقالات أُخرى سابقة ان الامم التي تهتمُّ بشأن التعليم ترقى معارج الفلاح والتي تهمله تخطُّ ويتولاّها الذلُّ والخسران . وان الشهم الهمام السعيد الذكر محمد علي باشا وآله الكرام قد بذلوا الجهد في نشر العلوم وتعزيز شأنها . ولدينا الآن "ترجمة التقرير المرفوع الى الحضرة الفخيمة الخديويّة ببيان الاصلاحات التي تمَّ اجراؤها بنظارة المعارف العموميّة في خلال سنة ١٨٨٥ والجاري تنفيذها الآن في سائر انواع التعليم" وهو شاهد باهتمام الحكومة الخديوية بالتعليم وبأنها تنفق عليهِ كما تنفق اغنى دوَل اوربّا اذا قُوبل دخلها بدخلهنّ

اما المدارس التي تنفق عليها الحكومة فكانت في شهر يوليو سنة ١٨٨٥ وفي اول يناير سنة ١٨٨٦ كما ترى

اسم المدرسة	التلامذة سنة ١٨٨٥		التلامذة سنة ١٨٨٦
مدرسة الطب	١٤١		١٩٧
" الصيدلة	١٠		
" الولادة	٢٤		١٧
" الهندسة	٣٤		٤٤
" الحقوق	٥٨		٧٢
" الالسن	٣٩	دار الترجمة	٢٥
" دار العلوم	٣٤		٨٨
" الفنون والصنائع	١٧٤		٢٨٩
" المعلمين	٤٧		٢٤٧
" التطبيق	١٧٦		
المدرسة التجهيزيّة	٣٩٩		٣٠٤
مدرسة المبتدئان	٨٤٧		٤١٢
مدارس أُخرى ابتدائيّة	٢٢٧٩		١٣٣٧

وكانت الميزانيّة المربوطة للمعارف ٨١١٣١ جنيهًا مصريًا سنة ١٨٨٥

ويتلو هذه المدارس المدارس الاهليّة وكان عدد تلامذتها في اواسط سنة خمس وثمانين ٢٦٣٦ تلميذًا وفي اوائل سنة ١٨٨٦ أُضيف اليها خمسٌ من المدارس الابتدائية فصار عدد تلامذتها كلها ٣٥١٨ تلميذًا . ونفقاتها من ايرادات جنلك الوادي وغيره وكانت الميزانيّة المربوطة لها سنة خمس وثمانين ٢١٠٠٤ جنيهات مصريّة

ثم مدارس الاوقاف التي انفصلت عن نظارة المعارف في اول سنة ١٨٨٦ ويبلغ عدد تلامذتها ١٥١٤ تلميذًا ويتبعها مدرسة البنات بالسيوفية ومدرسة العميان والخرس وفيهما ١٦٣

وكانت الاوامر العالية الصادرة بشأن تأسيس المدارس تحدّد سن التلامذة بالكيفية الآتية

من ٨ الى ١٢ سنة للمدارس الابتدائيّة
ومن ١٢ « ١٧ « « التجهيزيّة
ومن ١٨ « ٢٢ « « العالية

ولكن ظهر لدى الفحص ان ٤٦ في المئة من تلامذة المدارس الابتدائية يزيد سنهم عن الثانية عشرة . و ٣٣ في المئة من تلامذة المدارس التجهيزيّة يزيد سنهم عن السابعة عشرة . و ٣٠ في المئة من تلامذة المدارس العالية يزيد سنهم عن ٢٢ سنة ما عدا مدرسة الهندسة فان ٧٣ في المئة من تلامذتها يزيد سنهم عن ٢٢ سنة . وهذا اوقع الخلل في نظام المدارس واضرّ بسيرة التلامذة وقلّل اجتهادهم . ولذلك اصدرت نظارة المعارف منشورًا تحدّد فيه سن الطلبة وتأمر برفت من جاوزهُ منهم . ولكنها سمحت للتلامذة النجباء الذين يزيد سنهم عن السن المعيّن ان يبقوا في المدارس التي هم فيها سنتين اخريين رحمةً بهم . فبلغ عدد المرفوتين ٦٤١ تلميذًا ثم الحقت بعض المرفوتين بمدارس أُخرى واهتمّت بشأن البعض الآخر فسعت لهم بوظائف فتوظّف اكثرهم

ولمّا كانت الحكومة راغبة في تعميم التعليم وتوسيع دائرة المعارف في الديار المصريّة قبلت في المدارس وقت تشكيلها عددًا عظيمًا من اليتامى والفقراء مجانًا لتربيتهم ولكن ما لبث ان تحوّل هذا الخير الى شرّ وانقلبت نفعهُ الى ضرّ حيث ان كثيرين من الاغنياء وذوي اليسرة كانوا يسعون بطرق تخيليّة الى الحاق اولادهم بالمدارس مجانًا بدعوى الفقر ضنًّا منهم ببذل القليل من المال في سبيل تربية اولادهم وتهذيبهم . ونتج من شدّة التساهل والتفريط في قبول التلامذة مجانًا وخصوصًا الداخليّة منهم عواقب وخيمة ومضارّ جسيمة في امر الضبط والربط في المدارس بل في التعليم ايضًا ولذلك اضطرّت النظارة الى تحديد آخر عدد يجوز قبوله مجانًا بحيث لا يُقبَل بهذه الكيفيّة الاّ مَن ثبت فقرهُ وتوفّرت فيه الشروط اللازمة لاكتساب العلم . والى تحديد مقدار

الداخليّة ان لم نقُل ابطاله بالكليّة لاسباب خاصّة بهذه البلاد . فرتّبت ان لا يزيد عدد التلامذة الخارجيّة الذين يتعلّمون مجانًا عن ٢٤ في المئة وقلّلت عدد التلامذة الداخليّة"

ولمّا كان جانبٌ كبير من النجاح يتوقّف على ترتيب الدروس اهتمّت في اصلاح قوائمها (بروجراماتها) في المدارس الابتدائيّة والتجهيزيّة مراعية فيها ما حصل من التقدّم في امور التعليم باوربا في هذه الايام فجاءت ضابطة لسير جميع العلوم بكيفيّة منتظمة وعلى وجهٍ تدريجي وزادت فيها فنًّا جديدًا لم يسبق تدريسهُ قبل الآن في المدارس المصرية وهو علم الأدب والاخلاق. وحوّلت مدرسة الالسن الى ديوان الترجمة لانها وجدتها عديمة الجدوى خالية من صبغة العلم

وفي هذا التقرير كلامٌ واقٍ عن الرسالة المصرية باوربا . ويراد بالرسالة المصرية التلامذة الذين ترسلهم الحكومة الى اوربّا على نفقتها . ولا يخفى ما لهذه الرسالة من الفوائد المهمّة للقطر المصري لانها تُعِدُّ له قضاةً واطباء ومهندسين من الطبقة الاولى ولكن يُقال في هذا التقرير "انهُ لا يمكن القطع بان الارساليّات التي كانت تُرسَل الى اوربا في العهد السابق أتت بالغاية المطلوبة او بما يقرب منها اذ لم نرَ الى الآن على كثرة عددها مَن افاد بمعارفهِ البلاد وادّى لها خدمة حقيقيّة تُذكَر الّا عددًا يسيرًا جدًّا . ومَن أمعن النظر في هذه المسألة تجلّت له البواعث التي حالت بين الارساليّات المذكورة وبين انتاج ثمرات توازي ما يصرف عليها من النفقات الباهظة التي تحمّلتها البلاد منذ سنوات عديدة . وهذه البواعث يمكن حصرها في الامرين الآتيين وهما اولاً التساهل العظيم في امر انتخاب التلامذة مع ان الواجب انتقاء النجباء منهم البارعين من حيث ذكاؤهم واستعدادهم لتلقّي العلوم وثانيًا تجهيز هؤلاء التلامذة تجهيزًا لا يأذن لهم بدراسة العلوم العالية والنجاح فيها"

وبناء على ذلك قرّرت نظارة المعارف العموميّة ان تلغي ادارة الرسالة المصرية وان ينفق عليها ما لا تجاوز قيمتهُ ٢٥٠٠ فرنك سنويًّا لكل تلميذ يُرسَل من قِبَل الحكومة لتلقي الدروس العالية في اوربا وما لا تجاوز قيمتهُ ٢٠٠٠ فرنك سنويًّا لكل تلميذ يتلقّى في اوربّا دروسًا تجهيزيّة يترشّح بها لطلب العلوم العالية . وان لا يرسل من الآن (١٥ اوغسطس سنة ١٨٨٥) الى اوربا تلامذة ينعلّمون على نفقة الحكومة الّا من سن ١٠ لغاية ١٢ سنة لا غير

هذا واهتمام نظارة المعارف الجليلة بامر المدارس المصرية واضح في كل صفحة من صفحات هذا التقرير . وكل ما أجرتهُ من التغيير في نظام المدارس وترتيبها شاهد بشدّة اهتمامها وحسن مقاصدها . فمن جملة الغايات النبيلة التي توخّتها ان لا تقبل من التلامذة مجانًا الّا مَن يثبت لها فقرهُ وعدم استطاعتهِ على دفع المرتب القليل الذي جعلتهُ عشرة غروش في الشهر . وليس الغاية

من ذلك سد ابواب التعليم في وجوه الفقراء ولا تقليل عددهم في مدارسها لان الذين ينظرون في تاريخ البشر يرون ان اكثر الرجال العظام الذين اوصلوا العمران الى الحالة الحاضرة هم من اولاد الفقراء لا من اولاد الاغنياء . وما ذنب الاولاد اذا كان والدوهم فقراء او بخلاء أليسوا هم اولادًا للبلاد أوّلا يجب على البلاد ان تشركهم في الخيرات التي يتمتّع بها غيرهم . وهب ان الولد الفقير من سفلة الناس بل هب انهُ هيَ بن بَيّ فمَن يستطيع ان يحكم انهُ لا يصير رجلاً عظيمًا كغارفيلد رئيس ولايات اميركا وداليبر الرياضي الشهير وغيرهما من مشاهير الارض . وانما غاية نظارة المعارف الجليلة حث الوالدين الاغنياء على مساعدة الحكومة في تعليم اولادهم وانها لنِعمَ الغاية . ويا حبّذا لو كانت مالينها تمكنها من جعل التعليم الزاميًا ومجانيًا حتى تفتح ابواب المعرفة في وجه كل ولد ولو كرهًا عن والديهِ

ومن هذه الغايات ايضًا تقليل عدد التلامذة الداخلية وتكثير الخارجية وقد اضطرّت الى ذلك اضطرارًا لاسباب لا تُجهَل ويا حبّذا لو امكن ملافاة هذه الاسباب لان وسائط الدرس قلّما تكون معدّة للتلامذة الخارجية كما للداخلية

ومنها تقليل نفقات الرسالة المصرية من ٦٤٥٠ جنيهًا كما كانت سنة ١٨٨٥ الى ٤٠٠٠ جنيه ومع ذلك لم يقلّ عدد التلامذة بل زاد فانهم كانوا سنة ١٨٨٥ ثلاثين تلميذًا فصاروا سنة ١٨٨٦ اثنين وثلاثين وقد اهتمّت اشدّ الاهتمام بامر هؤلاء التلامذة واقامت لهم مَن يراقبهم في كل امورهم حتى اذا بدا من احدهم ما يدلُّ على قبح السيرة او عدم الرغبة او قلّة الاجتهاد يخبر النظارة عنهُ فلا نتوقّف عن استرجاعهِ

اما تحديد سن الطلبة عند ارسالهم بين ١٠ سنوات و ١٢ سنة فالذي نراهُ بالقياس على السوريين انهُ غير ضروري لانهُ قد ثبت لنا بالاختبار ان السوريين الذين يتلقّون مبادئ العلوم في مدارس سورية حتى يبلغوا اشدّهم ثم يذهبون الى اوربا لتكميل دروسهم فيها يحصّلون في سنة ما لا يحصّلهُ غيرهم في سنين وكثيرًا ما ينال الواحد منهم من الجوائز ما يقوم بنفقات تعلّمهِ . ولكن نظارة المعارف اوسع اختبارًا في امر المصريين وعسى ان تجد ترتيبها الجديد وافيًا بغرضها الحميد

هذا واننا نكرر ما قلناهُ في الجزء الماضي وهو ان "المال المعيّن لخدمة المعارف في مصر لا يزال غير قليل بالنسبة الى دخل الحكومة . ولولا أملنا ان عطوفة ناظر المعارف وسعادة وكيلهِ يبذلان قصارى الجهد في انتاج النتائج الكبرى من هذا المال لقلنا انهُ قليل ويجب ان يكون ضعف ما هو . ولكن عظم النتائج وحسنها يتوقّفان على حسن الادارة كما يتوقّفان على مقدار المال . وفّقَ الله اولياء الامور الى ما بهِ خير البلاد والعباد"